الاتجاهات الوطنية

في الأدب المعاصر

الجزء الأول

من الثورة العرابية إلى قيام الحرب العالمية الأولى

تأليف

الدكتور محمد محمد حسين

أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة الاسكندرية

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية

٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

الاتجاهات الوطنية

في الأدب المعاصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين . وصلاته وسلامه دائمين عاطرين على رسوله الأمين ، الذى هدانا الله به وأحيانا، ولولا فضل الله ورحمته لكنا من الضالين الهالكين .

وبعد فهذه هى الطبعة الثانية من كتاب (الاتجاهات الوطنية) فى جزئه الأول أدخلت عليها بعض التعديل فى الفصل الأخير « نزعات إصلاحية » . ولم يكد يطرأ عليها بعد ذلك شىء يذكر فى بقية فصول هذا الجزء إلا قليلا . ويستطيع القارىء أن يلمس مواضع التعديل بالمقارنة بين ذلك الفصل كما جاء فى هذه الطبعة ، وبين ملخصه كما يبدو فى مقدمة الطبعة الأولى ، التى أبقيتها كما هى دون تعديل . ولم يكن من هذا التعديل بد بعد أن بدا التناقض واضحاً بين ما جاء فى هذا الفصل وبين ما كتبته بعد ذلك بسنتين فى الفصلين الثالث والرابع من الجزء الثانى لهذا الكتاب ، ولاسيما مايتعلق منه بمحمد عبده وحركته . وقد اجتمعت لى منه مادة صالحة لايتسع لها هذا الكتاب أرجو أن يتاح لى نشرها فيما بعد . وهى تكشف عن جوانب أغفلها الذين كتبوا عنه وأرخوا له .

وقد كنت أحب أن أنجز فى هذه الطبعة للجزء الأول ماوعدت به فى تقديم الجزء الثانى من تعميم هذه الاتجاهات لكى تشمل العالم العربى كله — وظروفه فى تقديرى متشابهة فى خطوطها الكبيرة، يصدق فى كل قطر من أقطاره ماصح فى مصر . فكلها قد مر فى فترة التعلق بفكرة الجامعة الاسلامية ، حين كانت جميعاً جزءاً من دولة إسلامية كبرى تعتبر امتداداً للخلافة الاسلامية وهى الدولة العثمانية . وكلها قد ظهر فيها صراع بين هذه النزعة الاسلامية التليدة الموروثة وبين النزعات القومية الطارئة، التى بدأت طلائعها تظهر واضحة فى سائر البلاد العربية منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجرى . وكلها قد مر بفترة صراع بين النزعات الإقليمية وبين النزعة العربية التى ترد العرب إلى الوحدة الأصيلة

بعد الفرقة الطارئة . وكلها قد دارت فيه معارك حول تصوير العروبة : هل هى امتداد للإسلامية السابقة ؟ أم هى صورة من القوميات الغربية اللادينية ؟ وكلها قد شغل بالبحث والمناقشة حول أمثـــل الطرق والأساليب للنهوض ولاستعادة القوة والتخلص من أسباب الضعف وآثاره . ولم يكد الخلاف فيها جميعاً يخرج عن اتجاهات ثلاثة : اتجاه يدعو إلى العودة لينابيع الإسلام الأولى ، واتجاه آخر يدعو لاحتذاء الغرب وتتبع خطاه ، واتجاه ثالث يدعو إلى إسلامية متطورة يفسر فيها الإسلام تفسيراً يطابق الحضارة الغربية ، ويبرر أنماطها وتقاليدها . وكلها قد شغل بمصير الخلافة الاسلامية وواجب المسلمين إزاء إلغاء الحركة الكمالية للخلافة الإسلامية فى تركيا وكلها قد دارت فيها معارك فكرية وأدبية بين المتمسكين بالتقاليد الاسلامية والعربية وبين الداعين إلى الحضارة الأوروبية والمفتونين بأساليبها وأنماطها .

كنت أحب أن أنجز وعدى ذاك ، فأعمم هذه الاتجاهات التى تحدثت عنها فى هذا الكتاب بجزميه ولكن ظروفى الراهنة لم تسمح به . فأرجو المعذرة . ولعلى أفى بهذا الوعد فيما بعد ، أو لعل غيرى ينهض به . وقد نهض صديقى الدكتور ماهر حسن فهمى بشطر منه حين أصـــدر كتابه (القومية العربية والشعر المعاصر) فى سلسلة « مع العرب » التى تصدرها مؤسسة المطبوعات الحديثة ، بالقدر الذى سمح به حجم الكتاب وطبيعته . وقد تفضل مشكوراً بتصحيح تجارب هذا الجزء لبعدى عن مصر أثناء طبعه .

والله سبحانه وتعالى هو المستعان . له الحمد فى الأولى والآخرة . ولا حول ولا قوة إلا به ؟

محمد محمد حسين

بنغازى فى صباح السبت ١٢ من رمضان المبارك ١٣٨١

(١٧/ ٢/ ١٩٦٢ م)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

كان اتجاهى أول الأمر إلى أن أكتب عن الوطنية فى شعر شوقى . ولما اجتمعت لى مادة البحث ، رأيت أن الذين كتبوا عن هذا الشاعر قد ظلموه ظلماً بينا فى وطنيته . ونظرت فإذا شوقى ليس وحده هو الذى مدح السلطان عبد الحميد ، فقد كان ذلك اتجاه شعراء العصر جميعاً . ونظرت فإذا شوقى لم يكن وحده الموالى لتركيا ، فقد كانت مغاضبة تركيا وقتذاك لا تعنى إلا موالاة أعدائهم وأعداء مصر الإنجليز . ونظرت فإذا الرجل لم يكن وحده هو الذى مدح عباساً — وإن تكن صناعته ووظيفته قد اقتضته ذلك — فقد كان عباس فى الفترة الأولى من حياته موضع مدح كل الشعراء ، بل وموضع حب المصريين جميعاً وآمالهم .

ورجعت إلى كتابات العصر وصحفه وتاريخه ، فإذا كل ذلك يوحى بأن وطنية هذه الفترة لم تكن هى وطنيتنا ، وأن قيمها لم تكن هى قيمنا ، وأن تفكيرها لم يكن هو تفكيرنا . فالخطأ فى الحكم يرجع فى معظمه إلى تغير مفهوم (الوطنية) على مر الأيام . فالذين يدرسون أدب الصحراء والفطرة فى الجاهلية ، لا ينصفون إذا وزنوه بموازين الحضارة والمدنية فى القرن العشرين . والذين يدرسون شعراء ماقبل الإسلام يظلمون إذا وزنوهم بموازين الإسلام . والجيل الذى يولد فى هذه الأيام يخطئ إذا درس آداب آبائه بعد عشرين عاما أو ثلاثين فحكم على الذين مجدوا (الملكية) بالخيانة . وكذلك كان شأن الدارسين مع شوقى . لاموه لميوله التركية حين كانت الرابطة العثمانية حديث كل الأمم الاسلامية . وغضوا من قدره لأنه كان رجل القصر حين كان عباس ساكن القصر موضع أمل الوطنيين من المصريين وقدوتهم فى مقاومة الاحتلال فى شطر من حياته .

وعند ذلك خطر لى أن لا أقصر تاريخ الوطنية على شوقى ، وأن أؤرخ للاتجاهات الوطنية فى الشعر العربى فى مصر جملة ، ورأيت أن مثل هذا البحث

قد يصحح كثيراً من الأحكام السابقة العاجلة ، وقد يعين على وضع مقاييس صحيحة للقيم الوطنية وتطورها . فليس من الانصاف أن يحاسب الناس على أسس مباينة كل المباينة أو بعض المباينة لأسس العصر الذى عاشوا فيه وعبروا عن قيمه واتجاهاته . وليس من البحث العلمى أن يدرس الشاعر منفصلا عن بيئته التى استمد منها تجاربه . ومن هذا يبدو أن البحث فى لبه يستهدف تصحيح القيم الوطنية والقيم النقدية فى دراسة الشعراء المعاصرين .

وقد تبين لى من بعد أن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١١) كانت حداً فاصلا بين عصرين متباينين فى فهم مدلول (الوطنية) . ولذلك رأيت أن أقسم بحثى عن (الاتجاهات الوطنية فى الشعر المعاصر) إلى قسمين ، ينتهى أولهما إلى قيام الحرب العالمية الأولى ، وهو موضوع بحث هذا الكتاب الذى أقدمه بين يدى القراء .

وقد قسمت البحث إلى خمسة فصول .

تكلمت فى الفصل الأول عن (الجامعة الاسلامية) فبينت أنها كانت هى النزعة الغالبة على تفكير العصر ، حين لم تكن الفكرة القومية بمعناها الحديث قد سيطرت على الأذهان ، وحين كانت العاطفة الدينية هى المسيطرة على القلوب والأفهام ، وحين كانت الظروف التى تسود العصر توحى بأن الخصومة بين الشرق والغرب هى خصومة بين الاسلام والمسيحية ، أو هى استمرار للحروب الصليبية كما تصور بعض زعماء الوطنية وكتابها . وكان يعين على تدعيم هذا التصور مايدور من حروب بين تركيا من ناحية وبين الدول الأوروبية الطامعة فى اقتسام أملاكها من ناحية أخرى . هذه تنادى بتحرير الشعوب الأوروبية فى جنوب أوروبا من وحشية المسلمين ، وتلك تنادى بتماسك الشعوب الاسلامية واتحادها أمام الجشع الأوروبى . كما أعان عليه مهاجمة كثير من ساسة الغرب وكتابه للإسلام والمسلمين ، وتصويرهم فى صورة الهمج المتخلفين ، ورد تخلفهم هذا إلى جمود الاسلام الذى لا يصلح فى زعمهم لأن يكون شريعة أمة متمدينه راقية ، وأعان عليه كذلك ما كانت تبذله إنجلترا من جهود دائبة للقضاء على تركيا ، بتشجيع كل مناوىء لها وخارج عليها ومذيع لمساوئها ومصور لفساد الحكم فيها .

وبينت فى هذا الفصل أن موالاة تركيا والإشادة بها ومدح الشعراء للسلطان عبدالحميد لم يكن فى حقيقة أمره إلا تمسكا بخليفة المسلمين الذى يلى أمرهم ويجمع شملهم، وأن الخروج عليه ومهاجمته لم يكن يعنى فى أفهام كثرة المعاصرين إلا موالاة المستعمرين أعداء المسلمين . وتتبعت ذلك فى مختلف المناسبات والأحداث ، مثل الحركة العربية التى كان يظن أن إنجلترا هى التى تثيرها ، مستعينة بها على قتل الخلافة الإسلامية التى كانت تريد أن تنقلها إلى أمير عربى تضمه تحت حمايتها ، فتتسلط عن طريقه على الرأى الإسلامى العام ومثل حرب اليونان سنة ١٨٩٧. والدستور العثمانى ١٩٠٨ ، وسقوط السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ ، وحرب طرابلس سنة ١٩١١. وحرب البلقان وسقوط أدرنة سنة ١٩١٢. وقدوم طيارين تركيين إلى مصر سنة ١٩١٤ .

ثم بينت آخر الأمر أن المنادين بالجامعة الاسلامية لم يكونوا جميعاً من المؤيدين للنفوذ التركى فى مصر . وأن كثرتهم كانت مدفوعة إلى ذلك بعاطفتها الدينية ، وأن بعضهم كان يتخذ ذلك وسيلة لمناوأة الاستعمار الانجليزى ، وهو يرى بعد ذلك أن التخلص من النفوذ التركى سهل ميسور .

وتكلمت فى الفصل الثانى عن (الجامعة المصرية) ، فتتبعت تطور القومية المصرية التى كانت فكرة ناشئة فى ذلك الحين ، انتقلت إلى مصر مع ما انتقل إليها من الأفكار الغربية . فكانت صدى للاتجاه العام نحو تبلور القوميات فى القرن التاسع عشر . وقد رددت بذور هـــذا الاتجاه نحو الجامعة المصرية إلى الثورة العرابية ، التى كانت تعبيراً عن شعور المصريين بالاضطهاد إزاء عنصر غريب عنهم هو العنصر الجركسى . ورأيت أن فكرة الوطنية فى ذلك الوقت مختلفة بعض الاختلاف عما نعنيه منها اليوم، وأنها كانت مختلطة بالفكرة الإسلامية، لا تدعو إلى الانفصال عن تركيا وإن كانت تدعو إلى مقاومة استبداد العنصر الجركسى والنفوذ الأوروبى . وقلت إن هذه الحركة كانت تستهدف إنشاء رابطة عاطفية بين المصرى ووطنه ، تحفزه إلى الاهتمام بأمره والعمل على رفعته ، وأداء واجبه

نحوه من جهة ، والمطالبة بحقه فيه من جهة أخرى . ثم تطورت الفكرة القومية على أيدى أصحاب الثقافات الأوروبية ، وبدأت تهاجم الرابطة الدينية وتعتبرها مصدر شر وتفرقة بين أبناء الجنس الواحد . فدعا هذا الفهم الجديد للوطنية إلى أن يهاجمها المتمسكون بالرابطة الدينية ويعتبروها خطراً يهدد وحدة الأقطار الاسلامية ويضعف تكتلها أمام الدول الأوروبية الطامعة فى استعمارها .

ثم خفت صوت القومية وركدت الدعوة إليها زمناً بعد فشل الثورة العرابية، حتى انبعثت من جديد فى مختتم القرن التاسع عشر ، متأثرة بفكرة القوميات الأوروبية،واتخذت شكلين متباينين،أحدهما يتحدث عن الوطنية حديثاً عاطفياً، ويتغنى بها كما يتغنى العاشق بمعشوقته،محاولا أن يغزو قلوب المصريين بهذا الحب الجديد . والآخر يتحدث عن الوطن حديث العقل والمصلحة ، ولا يستهدف إثارة الناس ولكنه يحاول إقناعهم، ولا يتغنى بالوطن المحبوب ولكنه يتحدث عن النفع المادى والمصلحة المشتركة التى تجمع بين ساكنيه . وكان الفريق الأول ممثلا فى مصطفى كامل وهو يدعو إلى جامعة مصرية إسلامية ، ولا ينكر الرابطة العثمانية ، ولكنه يتخذها وسيلة لمناوأة الانجليز . وكان الفريق الثانى ممثلا فى لطفى السيد كاتب حزب الأمة الأول . وهو يدعو إلى جامعة مصرية خالصة ، ولا يعترف بالرابطة العثمانية لأنها لون من ألوان الاستعمار ، كما أنه لا يعترف بالجامعة الاسلامية لأنها وهم لا سبيل إلى تحقيقه من الناحية العملية . وبينت أن الدعوة الأولى كانت أقرب إلى القلوب ، وأن كثرة الناس قد آزرتها والتفت حولها ، وأن انصراف الناس عن الدعوة الثانية كان يرجع إلى أن دعاتها كانوا من كبار الملاك الذين لا يعنون إلا مصالحهم الخاصة حين يتحدثون عن النفع المادى والمصالح المشتركة ، وإلى أنهم قد انصرفوا إلى الكلام عن الاصلاح ولم يهاجموا الاستعمار الذى كانوا يوادونه حرصاً على مصالحهم .

وختمت هذا الفصل بالاشارة إلى ما صحب هذه الحركة المصرية من اتجاه تاريخى فى الشعر نحو إحياء المجد الفرعونى والمجد العربى ، الذين يمثلان النزعتين

السابقتين : القومية المصرية والقومية الاسلامية واتخاذ ذلك وسيلة إلى استنهاض الهمم، وبعث الأمل ، ومحاربة اليأس . ورد الثقة إلى الناس الذين تمكن منهم سوء الظن بأنفسهم حتى قتل فيهم روح الأمل والطموح .

وتكلمت فى الفصل الثالث عن (محنة الجامعة المصرية) التى بدت فى المؤتمر القبطى سنة ١٩١٠ والمؤتمر المصرى سنة ١٩١١ . وبينت أن الأزمة ترجع فى جوهرها إلى سوء ظن كل من الفريقين بصاحبه ، وإلى عدم توافر الثقة بين العنصرين اللذين يكونان الجامعة المصرية ، وإلى الجهل الذى يقود إلى عصبية عمياء لا تقوم على أساس من منطق أو دين ، وإلى التقاليد الفاسدة التى دعت القبط إلى أن ينطووا على أنفسهم ويقصروا اهتمامهم على مشاكلهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن تتحدث صحفهم عنهم وكأنهم أمة مستقلة لها كيان منفصل عن مصر . وهاجت الفتنة فبرزت عارية ، بعد قتل بطرس غالى رئيس الوزراء القبطى سنة ١٩١٠ . واعتبر القبط أن عنصرهم هو المقصود بالاعتداء . ودافع الفريق الآخر عن نفسه بأن الرجل لم يستحق القتل إلا بوصفه مصرياً خان وطنه وأعان عليه المستعمرين ، وبلغت الخصومة قمتها حين تم انعقاد المؤتمر القبطى فى أسيوط ٥ مارس سنة ١٩١٠ ، مطالباً ببعض المطالب التى كانت موضوع نقاش عنيف حاد فى الصحف، مما دعا إلى عقد مؤتمر مصرى تم انعقاده فى ٢٩ إبريل سنة ١٩١١، رد على مطالب المؤتمر القبطى التى لا تقوم على أساس من المواطنة المصرية ، ولكنها تقوم على أساس الدين وحده .

ثم تكلمت عما استتبعته هذه الخصومة العنيفة من محاولات صادقة للتوفيق بين عنصرى الأمة وتصفية ما بين جيران الوطن من سوء الظن . وانتهيت إلى أن هذا الشقاق كان محنة امتحنت بها الدعوة الناشئة إلى الجامعة المصرية، وأنه وإن كان قمة الخلاف بين عنصرى الأمة فقد مهد فى الوقت نفسه للوحدة القومية المصرية التى بدت فى أقوى مظاهرها فى ثورة سنة ١٩١٩ .

وتكلمت فى الفصل الرابع عن (تيارات سياسية) كانت تتنازع الناس فى

هذا العصر . وجعلت الثورة العرابية هى نقطة البداية فى اهتمام الناس بالمسائل السياسية . فقد كثر فيها حديثهم عن الظلم والظالمين . وعن حقهم فى محاسبة السلطان ، وعن الدعوة إلى النظام النيابى وإلى العدالة الاجتماعية وإلى الحد من تغلغل النفوذ الأجنبى . وظهرت فيها آراء جريئة تدعو إلى التخلص من النظام الملكى مفضلة عليه النظام الجمهورى .

ثم تكلمت عن نشأة الصحافة الوطنية بعد ما كان من ركود الحركة حينا واستكانة الناس للهزيمة . فظهرت صحيفة المؤيد سنة ١٨٨٩ ، ثم صحيفة الأستاذ سنة ١٨٩٢ . وبينت أن ظهور الحركة الوطنية الحديثة بعد الاستعمار الإنجليزى قد اقترن بحكم عباس . فتكلمت عن وطنيته فى أول حكمه ، مما جمع قلوب المصريين حوله . وما كان من تأييده لقادة الحركة الوطنية وعدائه للإنجليز ، مما أدى إلى اصطدامه بكرومر . ثم تكلمت عما كان من تراجعه أمام الإنجليز ، وعدم صبره للكفاح ، وانصرافه إلى تنمية ثروته من كل طريق ، واستعرضت سياسته المضطربة المتقلبة التى أدت إلى انصراف الشعب عنه ، بعد أن ساد الوفاق بينه وبين الإنجليز ، حين أرضى جورست — خليفة كرومر — جوعه إلى السلطة وإلى المال .

وبذلك استنفدت الحركة الوطنية جهدها فى مهاجمة عباس ، واستراح الإنجليز من اجتماع الشعب والخديوى على حربهم . وقدمت صورا من شعر الشعراء الذين كانوا يمدحون عباساً فى أول حكمه ، فانصرفوا عن ذلك إلى نقد سياسته ، منهم من يعنف فى ذلك حتى يبلغ حد الهجاء الذى يعرضه للسجن . ومنهم من يرفق فى ذلك فلا يتجاوز العتاب الهين الرقيق .

ثم تكلمت عن السلطتين اللتين كانتا تتنازعان تصريف الشئون فى ذلك الوقت سلطة الاستعمار وسلطة الخديوى ، أو السلطة الفعلية والسلطة الشرعية ، كما كانت تسميهما الصحف فى ذلك الحين ، وعن انقسام الصحف بين مؤيد لعباس ومؤيد لكرومر . وتكلمت عن سعى الاستعمار لخلق بطانة له من المصريين ، تحقيقاً

لسياسته التي رسمها لنفسه منذ الاحتلال فى أن لا يحكم بطريق مباشر ، وفى أن ينفذ إرادته بأيد مصرية يقع عليها وزر أعمالها أمام الرأى العام ، فتواجه ثورته ، وبذلك يقع بأس المصريين بينهم ويستنفدون جهدهم فى هذه الخصومة .

ثم بينت أن المصريين كانوا موزعين بين النفوذ التركى والنفوذ الفرنسى والنفوذ الإنجليزى والقصر . منهم من يلتمس العون على الاستعمار عند الخليفة التركى حامى المسلمين ، ومنهم من يلتمسه عند الفرنسيين المنافسين للاستعمار الإنجليزى. ومنهم من يحرص على وحدة الصفوف ويشفق من انشقاق المصريين فهو يدعو إلى الالتفاف حول القصر . ومنهم من يؤثر العاجلة ويعيش فى حاضره ولا يطمح إلى خير منه فهو يهادن الإنجليز ولا يطمع فى أكثر من دعوتهم إلى الإصلاح . ومنهم من يتعلق بسيد من هؤلاء السادة لأنه باع نفسه له فهو يؤيده بالحق وبالباطل .

ثم تكلمت عن تأسيس الأحزاب السياسية فى سنة ١٩٠٧ : الحزب الوطنى ومن ورائه الكثرة المثقفة من الشباب ، وهو عنيف فى خصومته للاستعمار . بدأ عهده مؤيدا لعباس وانتهى إلى مخاصمته ، ولكنه لم يهاجم الخلافة العثمانية فى الحالين وحزب الأمة ومن ورائه أعيان مصر وكبار الملاك فيها ، وهو يهادن الإنجليز ولا يتجاوز جهده الدعوة إلى الإصلاح. وهو يرى أن ذلك هو الطريق الطبيعى إلى الاستقلال. وحزب الإصلاح وهو حزب قليل الأنصار يدعو إلى عباس ، فهو لسانه المعبر عن ميوله واتجاهاته . وحزب كان يسمى نفسه بالحزب الوطنى الحر ، وما هو بوطنى وما هو بحر ، فهو دخيل باع نفسه للمحتلين ، ويتمثل فى صحيفة المقطم . وعرضت لما آل إليه أمر هذه الأحزاب من تطرف فى الخصومة وإسراف فى الاتهام ضاق به المصلحون ، فارتفعت صيحاتهم منكرة هذه المهاترات ، داعية إلى الاتحاد وجمع الصفوف .

وتكلمت فى الفصل الأخير عن (نزعات إصلاحية) لازمت هذا التطور الفكرى والسياسى . وكان دعاتها خليطا من المشتغلين بالسياسة ، وممن كرهوا أن

يزجوا بأنفسهم فى هذا المعترك العنيف وآثروا أن يسلكوا طريقاً لا يعرضهم لغضب السلطان. وكان بعض هؤلاء ينظر إلى عال المصريين الخلقية والاجتماعية، يحاول أن ينبه إليها ويرسم الطريق إلى معالجتها، مستوحياً فى ذلك الحضارة الغربية وأساليبها ونظمها. وكان فريق آخر ينبه إلى عيوب الأمم الإسلامية وسوء فهمهم الإسلام محاولا أن يقيم الإصلاح على أساس دينى. ثم بينت أن التفكير الأوروبى قد تجلى فى دعوات كثيرة، برزت من بينها ثلاث دعوات كبيرة، شغلت الرأى العام فى مستهل القرن العشرين؛ وهى: الدعوة إلى الحرية الشخصية وإلى الحياة النيابية، والدعوة إلى فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية وتحرير المفكرين من سلطة رجال الدين، والدعوة إلى تحرير المرأة من الجهل والحجاب وتمكينها من المشاركة فى الحياة. وبينت أن الدعوتين الأوليين كانتا متأثرتين إلى حد بعيد بما شاع فى الحكم العثمانى الفاسد من ظلم ومن استغلال لنفوذ رجال الدين.

ثم تكلمت عن حركة الإصلاح الإسلامى التى تزعمها محمد عبده، وتابعه فيها بعض تلاميذه ومعاصريه. وقسمت جهوده فيها إلى قسمين، اتجه فى أولها — أيام اتصاله بالأفغانى — إلى محاربة ما استولى على المسلمين من ضعف الهمم وفتور العزائم والانصراف عن جهاد الاحتلال. واتجه فى الشطر الثانى إلى التوفيق بين الدين وبين المدنية الحديثة، وإلى الرد على ما كان يوجه إلى الاسلام من شبهات، وإلى تقريبه من نفوس الشباب الذين نفروا منه، متوهمين أن الجمع بينه وبين المدنية والعلم غير مستطاع. وكان من أهم ما اتخذه لذلك من وسائل مشاريعه فى إصلاح الأزهر، وفتاويه التى كان يجيب بها على السائلين من مختلف الأقطار الاسلامية، ودروسه التى كان يحضرها عدد كبير من المثقفين والوجهاء.

ثم بينت أثر تجاور هذين التيارين فى انقسام المفكرين والناس فى مختلف نواحى الحياة إلى مجددين ومحافظين؛ مما جر إلى احتدام الخصومة بين المتطرفين من الفريقين. فكان الفريق الأول يتهم الفريق الآخر بالجهل

والتخلف والجمود. وكان الفريق الثانى يتهم الفريق الأول بالخروج على تقاليد الإسلام ، وربما ذهب فى ذلك إلى اتهام أصحابه بالكفر وبأنهم أذناب المستعمر وأعوانه، يساعدونه عن قصد أو عن غير قصد ، بتحبيب الناس فيه بدلا من تنفيرهم منه . وقد نشأ عن تجاور هذين التيارين تناقض فى الحياة المصرية ، التى جمعت بين المحافظة المتزمتة ، وبين التطرف فى الأخذ بأساليب المدنية الغربية ، فى البيت الواحد فى بعض الأحيان ، مما وضح أثره فى شاعر كشوقى ، تجاور فى شعره وصف المراقص والخمر ، مع مدائح الرسول وتمجيد الاسلام .

وانتهيت إلى أن هذه الصيحات المتباينة المتنافرة ، التى كانت تأخذ الناس من كل الجهات، قد ساعدت على تنبيه الوعى القومى وإنضاج التفكير ،فكانت أشبه شىء بالفوضى التى تمهد للنظام ، وبالسديم الذى ينكشف عن الأجرام ، وبالشك الذى يلد اليقين .

ولم يكن يعنينى فى هذه الفصول أن أستقصى الأحداث ، وأن ألم بالتفاصيل . لكن عنايتى قد انصرفت إلى توضيح الخطوط الرئيسية ، والاتجاهات العامة ، والتيارات الأساسية ، التى ظهرت فى هذه الفترة وسيطرت عليها ، مستنبطا ذلك من النصوص الشعرية والنثرية ، مع مطابقتها بالأحداث التاريخية . وأرجو أن أكون قد عاونت بذلك على تصحيح بعض المعايير النقدية ، وتوضيح ما يكتنفها من لبس أو غموض .

ولا يفوتنى فى ختام هذا التقديم أن أشكر السيد ماهر حسن فهمى لما قدم لى من عون فى تاريخ كثير من قصائد شوقى بالرجوع إلى تاريخ نشرها فى الدوريات ، وفى إعداد فهارس هذا الكتاب .

وعلى الله التوكل والاعتماد ، ومنه العون والتوفيق والسداد ؟

رمل الاسكندرية { ٢٩ شعبان سنة ١٣٧٣
٢ مايو سنة ١٩٥٤ } محمد محمد حسين